

التعليم العربي الحر في الجزائر ومؤسساته من سنة 1947 إلى سنة 1962 (قسنطينة نموذجاً)

ملخص رسالة الماجستير في التاريخ المعاصر

إعداد: أ. عائشة بوثريد

إشراف: د. عبد الكريم بوصفصاف

تعيش الجزائر - كغيرها من دول العالم العربي والإسلامي - حيرة كبيرة وانشغالا عميقا، بحثا عن جواب شاف لسؤال كبير: أي تعليم نريد؟ وقد شهدت المنظومة التربوية في بلادنا تغيرات متعددة، ومرت بأطوار مختلفة أثناء الاستعمار، وبعد الاستقلال، وعرفت - طوال هذه الفترة - أنواعا وألوانا من التعليم بشقيه العربي والفرنسي أثناء الاحتلال، والوطني بعد التحرر.

ومن أنواع التعليم التي تركت أثارا عميقة في كيان الأمة "التعليم العربي الحر" بكل امتداداته الفكرية والادبولوجية التي مازالت تؤثر على الحياة الوطنية حتى اليوم. لذلك اخترته كموضوع بحث لرسالة الماجستير في التاريخ المعاصر، لمحاولة إبراز الدور الفعال والحقيقي للتعليم العربي الحر في إعادة بناء النهضة الجزائرية وبعث الروح الوطنية التي كانت السند القوي للشعب الجزائري في كفاحه ضد المحتل، والمحافظة على مقومات الهوية الوطنية التي حاول الاستعمار طمسها والقضاء عليها خلال قرن وربع قرن من الزمن.

هذه هي الأسئلة التي حاولت الاجابة على بعضها في رسالتي هذه، وهي تتكون من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

وحتى يمكن إدراك مدى فعالية التعليم العربي الحر وأهمية الدور الذي قام به في تاريخ الجزائر، تُخصص الفصل الأول لبيان وضعية التعليم عامة في الجزائر قبل سنة 1947، في خمس مباحث تناولت جميع أنواع التعليم التي كانت متواجدة آنذاك: التعليم المكتبي (الكتاتيب القرآنية)، تعليم الزوايا، التعليم المسجدي، التعليم الفرنسي في المدارس الرسمية، والتعليم العصري في مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

أما الفصل الثاني فقد تُخصص لمدارس جمعية العلماء وهاكلها في ستة مباحث تناولت بالبحث



- فكيف استطاع التعليم العربي الحر - وقسنطينة نموذج - أن يصمد أمام محاولات إدارة الاحتلال لسد الطريق أمامه والقضاء عليه في المهدي.
- وما هي العوامل السحرية التي استطاعت أن تجعل نسبة كبيرة من الجزائريين يتطوعون لدعم حركة التعليم العربي الحر؟
- وكيف استطاعت مؤسساته أن توسع من دائرة التعليم وأن تصدر شهادات معترفا بها داخل الوطن وخارجه؟
- وكيف استطاع المشرفون عليه تسييره وتوجيهه بأعداد قليلة من المعلمين تفتقد إلى الكثير من الخبرة والدراية، وبموارد محدودة لا تتجاوز الاشتراكات وبعض الهبات والتبرعات دون دعم من أية جهة كانت محلية أو حكومية؟



وفي المبحث الخامس من الفصل الثالث محاولة لرسم الصورة العامة لوضع التعليم والمدرسة الجزائرية غداة الاستقلال.

وتُختم البحث بخلاصة عن النتائج المتوصل إليها وأهمها على الإطلاق هي أن التعليم العربي الحر شكل الأرضية الصلبة التي انطلق منها التعليم في جزائر الاستقلال والحرية، وكان له الفضل كل الفضل في الحفاظ على اللغة العربية والدين الإسلامي طيلة قرن وربع قرن من الاحتلال والاستغلال.

وأضيفت للرسالة عدة ملاحق لتوضيح بعض القضايا التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالموضوع كالنص الكامل لدليل "التعليم الحر الإسلامي في الجزائر" الصادر عن المديرية العامة للشؤون السياسية والوظيف العمومي، وقد فصل هذا الدليل القوانين والشروط التي يخضع لها التعليم العربي الحر (الإسلامي) في الجزائر، كذلك القوانين الأساسية للجمعيات، والقانون الداخلي لدار الطلبة ومدارس الجمعية، ونماذج من المطبوعات التي كانت تستعمل في المدارس الحرة. وختمت الرسالة - بطبيعة الحال - بقائمة المصادر والمراجع ثم الفهارس المختلفة.

والخلاصة التي توصلت إليها هي أن التعليم العربي الحر كان تعليما منظما يسير ضمن مناهج واضحة وبرامج عصرية - بالنسبة لتلك الفترة - راقية، تؤدي إلى الغاية المرجوة وهو ما اصطلاح على تسميته اليوم: التعليم بالأهداف.

وكان الهدف الأساسي من هذا التعليم هو المحافظة على الشخصية الوطنية من لغة ودين طوال فترة الاستعمار، حيث شهدت الجزائر نهضة ثقافية وعلمية حقيقية رائدها الدفاع عن الهوية وحب الوطن وطلب العلم للعلم لا للتوظيف أو الارتزاق، ولا شك أن حماس الجماهير الشعبية لتمويل مؤسسات التعليم العربي الحر ودعمها ماليا ومعنويا، والحماس الذي كان يملأ نفوس الطلبة ومشاعرهم ويحفز قلوبهم وعقولهم في ذلك

والتحليل والمقارنة (بما هو سائد حاليا) المؤسسات التربوية بكل أنواعها (في قسنطينة بصفة خاصة) مع الإشارة إلى أعداد التلاميذ والطلبة وظروف التمدن من تسجيلات وامتحانات وإيواء وكل ما يتعلق بالحياة اليومية للطلاب.

كما عولجت المناهج والبرامج وطرق التدريس والكتب المدرسية المقررة والأهداف التربوية المسطرة مع بحث قضايا المعلمين والأساتذة ومسايرهم المهني من تعيين وتثبيت وترقية وتفتيش وتكوين. هذا دون إهمال الاهتمام بالإدارة والتسيير ومصادر التمويل والعلاقة بين المدرسة والمجتمع ومشاكل السكن والأجور والرخص المفروضة على مدارس التعليم العربي الحر (وخاصة مدارس جمعية العلماء) من طرف السلطات الاستعمارية.

وبما أن التعليم العربي الحر لم يكن حكرا على جمعية العلماء المسلمين وحدها، رغم دورها الأساسي والرائد فيه، فقد تناول الفصل الثالث المؤسسات الأخرى التي ساهمت في هذه الحركة التعليمية (في مدينة قسنطينة)، فخصص المبحث الأول لزوايا قسنطينة ودورها في التربية والتعليم، وتناول المبحث الثاني الزاوية الحملوية وظروف تأسيسها للمعهد الكتاني وسياستها التربوية فيه، وتخصص المبحث الثالث لجمعية السلام ومدارسها ونشاطاتها في التعليم ودورها في تنشيط الحياة الثقافية في المدينة.

وتناول المبحث الرابع المدارس الحرة الأخرى التي كانت تعمل تحت إشراف حزب الشعب وبعض الجمعيات المحلية الأخرى كجمعية الحياة الإسلامية والمؤسسة الجزائرية للتعليم باللغة العربية واللغة الفرنسية وغيرها.

ويلاحظ أن حزب الشعب لم يؤسس مدارس للتعليم في قسنطينة وربما يعود ذلك إلى التواجد المميز لمدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومدارس الجمعيات الأخرى.

كما يتطرق هذا المبحث لمدارس جبهة وجيش التحرير أثناء الثورة المسلحة.

الوقت، تفتقر إليه الآن، في عز الحرية والسيادة الوطنية، شببتنا وجماهيرنا، رغم توفر كل الإمكانيات المادية والمعرفية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد تبين من خلال الدراسة جوانب سلبية، وهي الإهمال الكلي لمعالم هذه النهضة وتراثها الغني، فمعظم المدارس قد نقلت إلى مقرات أخرى أو ألغيت نهائياً وحولت مقراتها القديمة إلى مرافق أخرى دون أدنى ملاحظة أو إشارة تذكارية، وعلى سبيل المثال أذكر مدرسة "باردو" التي سميت "عقبة بن نافع" ونُقلت إلى بناية أخرى في حي مختلف وأصبح

المقر القديم قاعة للألعاب الإلكترونية، ومدرسة "السلام" أصبحت سكناً، والمدرسة "الخيرية" أطلالا خربة، و"معهد بن باديس" قيد الترميم بعد زمن من الإهمال والنسيان، أما "دار الطلبة" فما زالت مستغلة في التكوين غير أنها تفتقر إلى ما يُذكر بماضيها المجيد.

فلماذا نطمس معالم تاريخنا في وقت يُصنع فيه تاريخ لشعوب بلا تاريخ؟ ولماذا نحاول نسيان تاريخ مجيد في وقت تحيي فيه شعوب ماضيا بشعا مضيقة عليه الكثير من النبل والعظمة؟.

